آداب الطريق

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

(٤)

نخلص مما تقدم إلى أن الصوفية من أسبق الناس فى معرفة أصول التربية والتعليم، وقد وضعوا لذلك قواعد لا تزال تعتبر مقياسا سليما من مقاييس التهذيب والسلوك، وعلم النفس الذى يعتمد أصحابه على نظريات الغرب المبنية على التجربة والتخمين والمشاهدات كان أساتذته الأول هم الصوفية الذين حذقوا هذا العلم لا بناء على التجربة التى تتعرض للخطأ والصواب، ولكن بناء على الفراسة الصادقة، التى يقول فيها أشرف الخلق — صلى الله عليه وسلم — «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» وعلى الإلهام الروحى والكشف الإلهى الذى يفيضه الله على من يشاء من عباده.

فليس كالصوفية أحد تمكن من معرفة دقائق النفس وخفاياها، ومكامن خيرها وشرها وطرق رغباتها ودسائسها، حتى إنهم وصفوا لها مراتب ينتقل فيها السالك فى أثناء سيره ومجاهداته، فأول مرتبة للنفس هى الأمارة بالسوء التى يقول الله فيها على لسان يوسف أو امرأة العزيز «وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم» والمرتبة الثانية هى النفس اللوامة التى يقسم الله بها فى كتابه الكريم، لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة وتليها مرتبة النفس الملهمة ثم مرتبة النفس المطمئنة ثم مرتبة النفس الراضية فالمرضية، ويخاطب الله سبحانه وتعالى هذه النفوس الثلاث بقوله تعالى «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية» والمرتبة السابعة هى النفس الكاملة، وفيها تكون النفس قد وصلت إلى حالة الكمال والترقى والشهود الكلى، وتحلت بالصفات التى يحق لصاحبها أن يكون قدوة كاملة فى سلوكه وتوجيهاته.

ولكل مرتبة من هذه المراتب ألوان خاصة من المجاهدات والإرشادات يتمكن

بواسطتها المريد من الانتقال من هذه المرتبة إلى غيرها . والصوفية هم أدرى الناس بما يناسب كل حالة من هذه الحالات . فلكل إنسان ذوقه الخاص وشخصيته المستقلة وخصائصه التى قد قلما تخطىء عن غيره قليلا أو كثيراً . يكون الإرشاد فيها بناء على الإلهام والمدد الروحى والفراسة الصادقة التى كلما تجطىء . هذا الإرشاد هو الذى يوجه المريد ويأخذ بيده ويضع لهم النهج الذى يلائمه والمسلك الذى يوائمه ويوافقه ، ولذلك كان توجيه الصوفية موفقا غاية التوفيق ناجحا كل النجاح .

وليس أدل على ذلك من تعرفهم على دقائق الرياء الكامنة فى كثير من النفوس ، والتى يستعصى فهمها على كثير من الناس ولهم فى بيان ذلك ومعرفته طرائق متعددة دلت على قوة العزيمة ونفاذ البصيرة ودقة الفهم .

كما أن معرفتهم نوازع النفس واتجاهاتها وميولها وخصائصها ليدل دلالة قاطعة على أنهم قطعوا شوطا بعيداً فى إدراك ذلك إدراكا عمليا مبنيا على قواعد ثابتة من الحس والكشف واليقين الذى لا ترقى إليه الظنون والأوهام .

وهكذا كانت دعوتهم إلى الأخلاق دعوة خالصة قوية مؤمنة تعتمد على القدوة الحسنة أكثر مما تعتمد على الكلمة والموعظة لا لشىء إلا لأنهم عمليون مخلصون . ومن هنا كان تأثيرهم القوى فى مريديهم وأتباعهم ، وإننا لنرى الواعظ يعظ الناس بكلامه اللين فيستمعون إليه ثم ينصرفون وما علقت بقلوبهم كلمة واحدة مما قال . طالما كان يقول هذا القول أداء لحق وظيفته فحسب ولينال أجره على هذا القول دون أن يطلب أثر كلامه فى سامعيه . أما الصوفى فإنه يدعو إلى ربه بقلبه وروحه دون أن يطلب على ذلك أجراً ، حتى إنه ليقدح فى إخلاصه نظرة إلى ثواب الله فى ذلك قيل لأحد الصوفية . مالك كلما تكلمت بكى كل من يسمعك ، ولا يبكى من كلام واعظ المدينة أحد ؟ فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

فلا نستغرب إذن أن نرى للصوفية أثراً كبيراً فى الارشاد والتوجيه .

يقول علماء التربية : إن كل عمل يضيع بلا ثمرة إذا لم يتتبع صاحبه الجهود المبذولة فيه . . . وهذه قاعدة صوفية قديمة فالقائد الصوفى بين تلاميذه وإخوانه يقظ حريص متتبع لخطواتهم ، ليعرف مدى حرصهم على تنفيذ تعليماته وتوجيهاته ، ويأخذهم بالحزم والشدة متى رأى منهم التفريط أو الاستهانة ، وقد يكون للنظرة القاسية أو الصد والجفاء أو الاعراض عن المقصر أثر أشد من ضرب السياط وأكثر ألما من

نعم النار . لأن الطريق صاعدة إلى الله والقائد فيها أمين الله على هذا الركب الصاعد ، ودليله إليه ، فينبغى التعلق به والتأدب معه والاخلاص له .

فمتى أعرض القائد عن أحد من جنده فمعنى ذلك فى حسبانه ضلاله عن الركب وتعويقه عن القصد ، ولذلك سرعان ما يحاول إصلاح خلله والرجوع عن مواطن زلله .

وآداب الصوفية مع شيوخهم مستمد من آداب الصحابة رضوان الله عليهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد نزل القرآن الكريم موجها إلى ضرورة مراعاه الأدب فى حضرته لأنه المرشد الأكبر والدال الأعظم على طريق الخير والسعادة « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم . يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ، لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » .

وشيوخ الطريق قادتنا إلى الله وهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك فينبغى أن تكون لهم التجلة والاحترام .

قد يظن ظان أن الصوفية فى سلوكهم انطوائيون ميالون للعزلة فارون من المجتمع لا يعنيهم أحد سواهم ، ولا يهم الشخص منهم إلا اصلاح نفسه فحسب . وصاحب هذا الظن يظلم الصوفية ظلما بينا . وهذه تهمة ألصقها خصومهم بهم لا شىء إلا لأنهم انفردوا بمعرفة الله سبحانه وتعالى ودلوا عليه ودعوا الناس إلى عدم الانهماك فى الدنيا انهماكا يعمى أبصارهم وبصائرهم عن صاحب هذه النعم التى أغدقت عليهم ، وكانت لهم أذواق ومشاهدات ومعارف تعلو على أفهام هؤلاء الخصوم ، فنفسوا عليهم هذه المعرفة وحقدوا عليهم ، ودسوا لهم ، وأغروا السفهاء بهم وظنوا أن ذلك يطمس نور الشمس ، أو يعشى سلطان الحقيقة ، ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم .

وفى الواقع لم يكن الصوفية أبدا فى معزل عن الحياة أو المجتمع ، لأن مهمتهم الأولى هى الدعوة إلى الله والتخلق بأخلاقه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تحقيقا لقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون » ، وهذه المهمة لا يستطيع أن يقوم بها شخص انطوائى منعزل غير متعرف على خصائص الناس ونفسياتهم ومجتمعهم . هذا من ناحية ، ومن

ناحية أخرى ، كيف يدعو الصوفى الناس وهو بعيد عنهم غير مختلط بهم أو مندمج فيهم ؟ فلا بد إذن أن يكون الصوفى شخصا اجتماعيا خبيرا بأحوال المجتمع الذى نعيش فيه .

الصوفى رجل مثالى يعنيه تماما أن يرى مجتمعه الذى يعيش فيه قويا متماسكا متينا مبنيا على أسس من الرحمة والحب والتعاطف والتعاون . يريد أن يرى المجتمع صورة من روحه الواسعة المليئة بالخير والمعروف ، ولذلك يألم لألم الناس ويفرح لفرحهم ويضحى بنفسه لمنفعتهم ، ويؤثر أدنى مصلحة لأدناهم على أقوى مصلحة له هو . الصوفى ينفذ قول النبى صلى الله عليه وسلم « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم تنفيذاً عمليا . وهذا هو الامام الشعرانى رضى الله عنه يقول « من ضحك أو استمتع بزوجه أو لبس ثوبا منجرا أو ذهب إلى مواضع المتنزهات أيام نزوك البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء شب حريق فى أحد الأسواق ونجا حانوت يملكه رجل صوفى ، فقيل له ذلك فقال : الحمد لله وسرعان ما استدرك ، وعند ذلك جناية ما زال يستغفر منها حتى آخر حياته . لأنه أراد لنفسه الخير دون المسلمين وهذه أثرة وأنانية تتنافى مع طباعه كصوفى يدعو إلى البذل والإيثار والتضحية . ؟

للحديث بقية